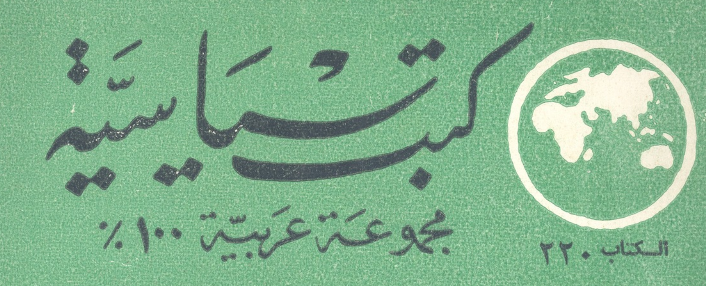


البعث العربي

بقلم
فرانسسكو جابريلي

كتب سياسية
الكتاب ٢٢٠

البعث العربي

بقلم
فرانسسكو جابريلي

مقدمة

يستعرض المؤلف فى كتابه « البعث العربى » تاريخ العرب وسيرهم فى طليعة التقدم التاريخى وتالق نجمهم وحيويتهم وقوميتهم فى العصور الحديثة حيث نهضوا وتالقوا .

فيبدأ منذ التاريخ الاول للعرب قبل الاسلام ويتتبع ظهور الاسلام واثره فى العرب . وفتوحات العرب فى تلك السنوات الاولى . وتوسعهم السريع الملحوظ خارج نطاق جزيرتهم حتى امتداد دولتهم من الاطلنطى واسبانيا الى سهول وسط آسيا ومن ارمينيا الى نابولى ، وخضوعهم للنفوذ الاجنبى لعدة قرون مبتدئا بالغزو والاحتلال التركى ، واضمحلال الحضارة العربية الاسلامية ثم اتصال العالم العربى باوربا ونتائج هذا الاتصال لا فى مجال القوة فحسب ، بل فى مجال الفكر والحضارة أيضا . وبدء تاريخ العرب الحديث ، واحياء الاتحادات السابقة القديمة ثم الاحتلال البريطانى والفرنسى ، وظهور الحركة القومية ، وتطور القومية العربية وبدء الثورة العربية والكفاح العربى ، وحصول دول المشرق والمغرب العربية على استقلالها ، وظهور تكتلات واتحادات جديدة بين الدول العربية ونتاج التطور التاريخى الذى لايزال يسير قدما الى الامام . وتالق مثل الوحدة التى ترجع الى بداية حركة التحرير العربى ، وعلاقة العالم العربى بالكتلتين الشرقية والغربية .

الفصل الأول

الماضي العريق

لايمكن كتابة تاريخ البعث العربى ، حتى ولو كان فى صورة موجزة ، دون معرفة الحالة التى تردى منها العرب ، والحالة التى بزغ فيها نجمهم مرة أخرى . ولذلك كان من الضرورى تبيان سجل انتصار العرب العظيم فى الماضى ، وزمن وكيفية اضمحلالهم فى العصور الوسطى حتى اتضاح شكل القومية العربية قديما ، ومعرفة العلاقة بين شعور العرب القومى وبين دينهم الاسلام ــ تلك العلاقة التى غالبا ما تكون بعيدة كل البعد عن الوضوح بالنسبة للرجل العادى

ان التاريخ الاول للعرب قبل الاسلام يبين لنا أن هؤلاء الناس كان عندهم شعور قومى بدائى ولكنه كان واضحا . ورغم ماكان يحيط بهم من دول شرقية أو رومانية اغريقية عظيمة ، واغنى منهم واكثر تعقيدا فى حياتها المادية والروحية ، فانهم ميزوا أنفسهم فى ذلك الوقت وفيما بعد ــ عن اليونان والرومان ، والبيزنطينيين وعن الارمن والفرس ، بالوعى والعزة القومية اللذين عبروا عنهما بصفة رئيسية فى شعرهم الذى يمثل الوثيقة الوحيدة لحياتهم الروحية التى وصلت الينا من هذا الزمن السحيق ، وكذا فى تراثهم الاسطورى التاريخى الذى لم يتخذ شكله المكتوب النهائى الا فى العصر الاول للاسلام . وفى هذا كله يميز العرب أنفسهم عن العجم أو غير العرب ، وبوجه خاص عن الفرس والروم ، أو الفارسيين والبيزنطيين الذين كانوا أقرب جيرانهم قبل ظهور النبى محمد تماما كما ميز الاغريقيون انفسهم فى الحضارة القديمة عن البربر

كان الاحساس الحى بالاستقلال والحرية هو ماميز الشعب العربى . وقد ساعد هذا الاحساس بفضل الصحراء ، فى صد كل هجوم ومحاولة للغزو الاجنبى ، ولكنه ساعد أيضا على منع تكوين

جماعات سياسية منظمة ودائمة . ويبين تاريخ الشعوب العربية خلال عصر الوثنية أو الجاهلية هذا الشعور بالعزة القومية وعدم الرضوخ لاى نوع من أنواع السلطة المنظمة الذى يكون أرفع من ذلك النوع من السلطة القبلية . ويتمثل الاستثناء الهام الوحيد من هذا النوع من الحكم فى الدول الحاكمة الصغيرة التى تعمل كدول حاجزة تلك الدول التى تكونت فى الشمال الشرقى والشـــــمال الغربى وشبه الجزيرة العربية فى نطاق امبراطورية الساسانيين والبيزنطيين .

ظهور الاسلام (٦٢٢ بعد الميلاد)

وفى هذه القبائل العديدة غير المنظمة البعيدة كل البعد عن أى اتحاد سياسى ومع ذلك تجمعها روابط الجنس واللغة والثقافة ظهرت رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم التى جمعت شملها فى وحدة شاملة كبرى . قضى الاسلام على العزة الوثنية الجاهلية ، ولكنه كان عقيدة الامة العربية . لم يكن للعرب حتى ذلك الوقت رسالة مقدسة أما الان فقد ارتفعوا الى مستوى الناس الاخرين « اهل الكتاب » الذين انزل عليهم قبلهم ، كتابا مقدسا ، وأصبحوا على قدم المساواة فى علاقتهم بالله واحد حق . ومالبثوا ان اندفعوا بعد وفاة النبى خارجين من شبه جزيرتهم . فهم اناس اختارهم الله لينشروا قانون السماء فى أرجاء المعمورة . وفى الوقت نفســـــه ليتمتعوا بالمزايا التى كفلها لهم وضعهم الممتاز «المادة الاولى للاسلام» كما سماه الخليفة عمر .

الامويون : (٦٦٢ ــ ٧٥٠ بعد الميلاد)

ليس من الضرورى سرد التوسع السريع الملحوظ لفتوحات العرب فى تلك السنوات الاولى بالتفصيل ففى غضون قرن من موت النبى محمد صلى الله عليه وسلم حكم خلفــاؤه الذين كانوا على راس المجتمع الاسلامى من دمشق دولة امتدت من الاطلنطى واســـبانيا الى سهول وسط آسيا . ومن ارمينا الى نابولى وكانت الطبقة الحاكمة لهذه الدولة ، خلال هذه الفترة من العرب كلية . وهؤلاء احضروا معهم من شبه الجزيرة العربية نظامهم القبلى بعد أوانه ومنازعاته وحزازاته ، رغم تخفيف حدتها نتيجة لمبدأ المساواة فى الاسلام وخضوع الجميع لسلطة الخليفة المركزية . وظل الخليفة

هو الحاكم الاســـلامى الاعلى فى عهـد الامويين (٦٦٢ ــ ٧٥٠) والعباسيين (٧٥٠ ــ ١٢٥٨) .

كانت فترة حكم الامويين العصر الذهبى لقوة العرب حيث بلغ فيها توسع امبراطورية العرب «الى الحد الاقصى . فامتـــدت سلطة الخليفة الفعلية ــ سلطته فى تعيين واقالة حكامالمقاطعات ــ ومن قلب سورية الى أقصى حدودها المترامية الى اسبانيا وافريقية فى النصف الاول للقرن الثامن والى السند فكانت هــذه المنطقة الشاسعة تنصاع لاوامر الخليفة .

ومع ذلك فلم يكن للعرب اى احساس واضح بانهم يعيشون فى عصر ذهبى . فكانت هذه الروح أقوى عامل ساهم بشكل طبيعى فى اخضاع الشعوب غير العربية

العباسيون (٧٥٠ ــ ١٢٥٨) .

كان العباسيون عربا ولكن كانت تساندهم الى حد كبير عناصر غير عربية فى الامبراطورية (وعلى رأسها الفرس) والاسلام فىصورته العالمية منبه الى الشعور القومى . ومن ثم ، فان انتقال الســلطة بصورة عنيفة من الامويين الى العباسيين ، رغم أنه لم يكن ذا أهمية على الاقل فى سنواته الاولى حيث لم يكن هناك الا تدهور ثقـــافى واجتماعى . وقد وضع نهاية للزعامة السياسية للعرب . فانفصلت اسبانيا فى الحال تقريبا مكونة دولة مستقلة . وتبعتها افريقيةغرب مصر والمناطق الشرقية كايران ووسط آسيا . وبعد أقل من قرن من الاستمرار فى السلطة والجاه تميز عصر العباسيين فى الواقع بعصر التصفية المتتابعة للامبراطورية المتحدة ومع ذلك لم يفقـد الاسلام كدين ، اى شىء من نفوذه فى اى من هذه المناطق بل انه امتد حتى العصور الحديثة . لكن لم يحدث أن كانت هناكدولة عربية تضم مرة اخرى داخل حدودها جميع الاراضى الاسلامية .
وعلى العموم ، فان هذا الانحصار فى سلطتهم السياسية قــد عوض الى حد كبير بانطلاق ثقافى عظيم وصل الى اوجه فى نفس عصر العباسيين تماما كما حدث لامبراطورية الاسكندر العظيمة . فقد كان انهيار الدولة المركزية وتكوين الوحدة الثقافية للحضارة الاغريقية هو ما تمخضت عنه هذه الامبراطورية فقد بقيت عقيدة الاسلام عالمية فى جميع مظاهرها ، ولم تمس حتى عنـدما حاول

الفرس والاتراك فيمابعد تسليط نفوذهم الادبى على الاراضى الاسلامية وفى الواقع استعاد العرب فى الميدان الثقافى الزعامة التى افتقدوها فى الميدان السياسى .

وسرعان ماسقطت سلطة العباسيين الفعلية فى ايدى متآمرين من القصر بينما تردت دولتهم البيرقراطية التى أسيء ادارة شئونها فى هاوية من الافلاس وفوضى اقتصادية واجتماعية خطيرة . ولكن خلال الفترة الطويلة للغاية من حكم الخليفة العباسى التى امتدت حتى منتصف القرن الثالث عشر والتى تميزت أيضا بازدهار الحياة الثقافية ـ ظهرت بعض الدول العربية او المعربة المستقلة واقعيا واحيانا المستقلة اسميا أيضا ، وكانت جديرة بذكرها فى حوليات العرب

تاسيس بغـداد :

بقيت العراق ، حيث أسس العباسيون فيها منذ البداية بغداد كعاصمة جديدة للامبراطورية ، تحت حكمهم المباشر او حكم أولئك الذين سيطروا عليهم شيئا فشيئا بالوصاية . ولم تعد سـورية بعد أن فقدت مكان الصدارة الذى كان لها تحت حكم الامويين ، لم تعد تعرف اى حكم عربى محض باستثناء بعض فترات قصيرة من حكم الامراء كالحمدانيين فى القرن العاشر ولكن ظهر فى مصر وفى غرب مصر ، فى المغرب واسبانيا ، دول عربية كبرى فى العصـور الوسطى لامعة فى قوتها وحضارتها ، متحررة من كل رباط بما بقى من سلطة خليفة بغداد . فكان فى مصر الفاطميون . فشهدت فى عهدهم ابرز حكم اسلامى حكم على ضفاف النيل وكان عاملا هاما فى القرن العاشر والحادى عشر فى تاريخ البحر الابيض المتوسـط وكان له الفضل فى دفع الفن والثقافة الى الإمام .

حكم العرب فى اسبانيا وشمال افريقية :

تطابق اعظم فترات الفـــاطميين تلك الفترة من تاريخ الدولة العربية الكبرى الاخرى فى الغرب . حيث استعاد الخليفة الاموى قرطبة التي وحدت لاكثر من قرنين جميع مسلمى اسبانيا وواجهت وهاجمت اوروبا المسيحية من الغرب وكونت اصل العصر العظيم للحضارة العربية الاندلسية وبعد سقوطها فى بداية العصر الحادى عشر ، تفتتت اسبانيا الاسلامية الى عدد من الامارات الصغيرة .

ثم انتقلت السيطرة على أسبانيا وعلى جزء كبير من شمال افريقيا الى حكام من سلالة البربر ولكنهم عربوا تماما .

كان العرب قد اتصلوا «باهل شمال افريقيا» فدخلوا فى الاسلام واندمجوا ثقافيا . كما اتصل العرب بعنصر آخر فى الجهة الشرقية وهو العنصر التركى الذى قدر أن يكون له تاثير أكبر فى تاريخهم وبعد أن ساند الفرس ثورة العباسيين . وأصبح لهم لفترة قصيرة مكان الصدارة فى بغداد . انسحبوا الى حدودهم وهناك عاشوا حياتهم السياسية والثقافية الذاتية فى ظل الاسلام . وانتهى مطاف اتراك وسط آسيا من البربر الذين دخلوا فى الاسلام بعد الغزو العربى . انتهى مطافهم بالسيطرة على جميع انحاء المجتمع العربى الاسلامى فى الشرق . بدأت هذه العملية فى القرن التاسع واستمرت دون انقطاع فى القرون التالية حتى دخول العرب نهائيا فى اطار الامبراطورية العثمانية .

ولكن قبل الوصول الى هذه النهاية سارت العلاقات العربية التركية بصورة مختلفة ومعقدة . فالاتراك تغلغلوا بشكل مطرد فى البنيان العسكرى للخلافة ثم فى الدول التى انسلخت منها اوحلت محلها . حتى استطاعوا أن يقيموا حكمهم ودولهم التركية . وظل السكان عربا واللغة والثقافة عربية ولكن الطبقة الحاكمة كانت تركية

وعندما قام الصليبيون بمخاطرتهم فى نهاية القرن الحادى عشر تصدى لهم أبطال الاسلام العظام من امثال صلاح الدين . كان صلاح الدين مؤسس حكم الايوبيين ودولتهم التى كانت عربية تماما فى ثقافتها وادارتها المدنية . الامر الذى ساعد على انزال الهزيمة بالصليبيين فى فلسطين ومصر وجعل من اتحاد سورية ومصر أمرا ممكنا واذا اخذنا بالاسرة الحاكمة فلم نجد فى القرن الثانى عشر اية دولة عربية كبرى . ولكن كلا من الايوبيين والمماليك يمكن فى الواقع اعتبارهما عربا طالما أن غالبية رعاياهم عرب . وان لغتهم فى الثقافة السائدة فى بلادهم تبعا لذلك عربية .

ويمكن اعتبار دولة المماليك المصريين الذين احتلوا فى منتصف القرن الثالث عشر تقريبا مكان الايوبيين وظلوا على هذا الحال حتى اوائل القرن السادس عشر . اخر دولة عربية مستقلة تخلفت عن الخلافة القديمة . وفى عام ١٦٥٨ قضى المغول على آخر آثار الخلافة

وضموا العراق التي كانت مركزا لحضارة العباسيين الزاهرة الى ممتلكاتهم الفارسية . وفى غرب مصر قسم شمال أفريقية على حكام من نسل عربى بربرى .

خضع العرب للنفوذ الاجنبى لعدة قرون . ولكنهم لم يقهروا كلية . فلقد مر بنا الآن فى العصور الحديثة ، كيف أنهم نهضوا مرة أخرى وتالفوا .

كان هذا هو ميراث الماضى الغنى والشعور الذى يكمن وراء البعث العربى الحديث . ولكن قبل أن يبدأ العرب فى التسلق مرة اخرى حتى يصلوا الى قمة المجد ، عليهم أن يتناسوا مرارة الانهيار المؤلم الطويل

الفصـل الثـانى

الغزو والاحتلال التركى

يمكن ملاحظة أعراض الاحتلال الاولى بعد عام ١٠٠٠ ويبدأ بوصول الاتراك من الشرق الذين أعلنوا رسميا الوصاية على الخليفة العباسى فى القرن الثانى عشر تحت حكم السلاطين السلاجقة

المماليك (١٢٥٠-١٥١٧) :

شهد القرن الخامس عشر والسادس عشر ، عصر النهضة فى أوروبا ؛ الشعاع الاخير للعالم العربى فى الشرق . وانتقل مركزه من العراق - التى أنهكت قواها والتى سادها البربر الى مصر وسورية اللتين اتحدتا (١٢٥٠-١٥١٧) .

لم يات المماليك مباشرة من وسط آسيا كما فعل الاتراك خلال عهد العباسيين والسلاجقة ولكنهم جاءوا من مناطق أقرب الى الغرب ، من شواطىء البحر الاسود والقوقاز وجنوبى روسيا . ومن تلك المناطق جاء التيار المتدفق المنتظم من العبيد الذين ملأوا مراكز حرس الايوبيين . وبالتدريج رفع هؤلاء الحرس انفسهم الى قمة البنيان العسكرى وجهاز الدولة . وتحقق توليهم السلطة العليا أما عن طريق القوة أو بموافقة زملائهم فى السلاح .

وهؤلاء الاتراك والشراكسة غالبا ما كان تعليمهم عسكريا محضا. واحيانا لم يستطيعوا حتى التحدث بلغة رعاياهم .

وعندما استمر مجىء المماليك الى مصر من البحر الاسود لمدة طويلة ، لم ينسوا أبدا لغة بلادهم . واحضروا معهم النظم والعادات والالقاب التركية والفارسية واستخدموها فى الشئون العسكرية والقضائية .

وفى الوقت نفسه كانت ايام امبراطورية المماليك معدودة . فبعكس الاتراك العثمانيين ، كانت بطيئة فى تعلم واستيعاب نتائج

العلم الاوروبى مثل الاسلحة النارية ، وادى هذا التخلف الى نهايتها المفجعة فى صراعها مع القومية العربية الكبرى الحديثة .

الاتراك يصلون : (١٥١٦) :

وضع التطور الملحوظ للاستعمار العثمانى نهاية عاجلة لدولة المماليك . فبعد معركة معهم فى اغسطس ١٥١٦ بالقرب من حلب لم تستمر الا ساعات قليلة أسفرت عن القضاء على جيشهم القديم الذى تشتت شمله امام مدفعية العثمانيين ، وفتح الطريق امام السلطان سليم للاستيلاء على سورية . وبعد أشهر قليلة (فى يناير ١٥١٧) سقطت مصر أيضا وبدأت أربع قرون من الاحتلال العثمانى

كانت السيطرة على سورية والعراق نظرا لقربهما من حكومة القسطنطينية مباشرة عن طريق حكامها الباشوات تساندهم فى ذلك حاميات تركية .

أما فى ليبيا وتونس والجزائر ، فان السيادة العثمانية سرعان ما أصبحت غير مباشرة رغم اعادة التاكيات أو المحاولات القصيرة التى بذلت من وقت لآخر لممارسة حكم أكثر مباشرة .

وتحت هذه الاشكال وتلك الدرجات المختلفة من السلطة للامبراطورية العثمانية اخضعت الامبراطورية العثمانية الجزء الاكبر من العالم العربى لسلطانها فيما بين القرن السادس عشر والقرن العشرين . وكانت هذه الفترة بالنسبة للعرب أسوأ فترة فى تاريخهم فى عصورهم الوسطى الحقيقية .

كان شغلها الشاغل هو الاستقلال الاقتصادى . وكان حكمها أسوأ مثل للحكم فى القارات الثلاث . واذا أراد أحد أن يجد نوعا من التبرير للحكم العثمانى . فانه لا يستطيع الا ان يقول أنه وزع مساوئه بالتساوى دون تمييز ، على مناطق نفوذه ، وان الاموال الاقتصادية والاجتماعية وطرق حكم الدول التى خضعت له لم تكن أفضل كثيرا — فى العالم العربى مثلا — من مثيلاتها فى دولة المماليك القامعة التى كانت موضع كراهية العرب وازدرائهم .

الفصل الثالث

القرن التاسع عشر

استيقظ العالم العربى من سباته العميق الذى دام ثلاثة قرون فى مطلع القرن التاسع عشر . وبينما واجهت أوربا الغزوات العثمانية فى القرون الاولى بقوة متعادلة . فانها أثبتت الآن تحت قيادة نابليون أنها تفوق الامبراطورية العثمانية فى الناحية التكتيكية بدون قياس وفى نظرتها المدنية والسياسية المتطورة تطورا كاملا . وكانت الحملة النابليونية على مصر بمثابة فجر حياة جديد طلع على العالم العربى بعد أن كان غارقا فى سبات العصور الوسطى العميق .

ورغم أن الآثار المباشرة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات ، فلا شك أنها كانت بداية لكل التطور الروحى والمادى الذى تلاها للعرب فى القرن التاسع عشر . وهذا الاتصال بين الشرق والغرب لافى مجال القوة فحسب ، بل أيضا فى مجال الفكر والحضارة أصبح منذ هذه اللحظة عاملا رئيسيا فى تاريخ العرب الحديث .

البريطانيون يحتلون مصر (١٨٨٢) :

فى عهد توفيق وفى الاسكندرية فى صيف عام ١٨٨٢ كان التعبير عن سخط كامن طويل تاجج فى صدور المصريين لعدة سنوات ضد التدخل الاجنبى المتزايد ، هذا السخط الذى عبر عنه عرابى باشا ، فكان هدفه هو ان يفرض على الخديوى سياسة أكثر حزما لمقاومة التدخل الاجنبى . ثم كانت معركة التل الكبير نهاية للانستقلال السياسى لدولة محمد على وبدء الاحتلال العسكرى البريطانى .

لم يحدث تغيير رسمى فى بنيان الدولة التى استمر على راسها الخديوى « توفيق ثم عباس الثانى من عام ١٨٩٢ » ومجلس وزراء وبرلمان ولكن السلطة التنفيذية الفعالية كانت فى يد المندوب السامى

البريطاني تسانده قوات الاحتلال ومدفعية الاسطول الملكى .

قام البريطانيون بوظيفة الاستعمار فقاموا بعدة مشروعات ادعوا انها تهدف الى الاصلاح . ولكنهم فى الوقت نفسه أمدوا الشعور القومى المصرى بدافع جديد جعله يدخل فى صراع مع الاحتلال الاجنبى حتى استطاع ان يطرده فى النهاية من البلاد .

عبد الحميد الثانى (١٨٧٦-١٩٠٩) :

كان السلطان الاحمر عبد الحميد الثانى من أكثر طغاة التاريخ اجراما وفى عهده عانت لبنان وسورية ، المسيحيون والمسلمون والعرب والاتراك على السواء ، وكل جنس تابع آخر فى الامبراطورية أقسى أنواع الاستبداد والطغيان . كان غرضه الحقيقى ، من وراء انشاء دولة عربية شاملة ، الاستبداد والقمع لكل أنواع التقدم والحرية والاستقلال . .

وكان من نتيجة هذه السياسة الاستبدادية أن هاجر كثير من الشباب العربى المثقف الى مصر ، حتى رغم الاحتلال البريطانى . والى الامريكتين بدافع اقتصادى أساسا .

أصول أفكار العرب السياسية :

وهكذا كانت ثقافة العالم العربى ومثله السياسية الجديدة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نتاج مقاومة الاحتلال فى صوره وأشكاله المختلفة وقد ظهرت فى بادىء الامر فى المناطق المركزية . مصر وسورية . فقط وبعد سنوات كثيرة ظهرت انبعاثات مشابهة فى المناطق العربية المتاخمة لهما ورغم أن البلدين كانت لهما مصائر سياسية متحدة الا انهما قد شكلا دائما فى العصور الحديثة وحدة ثقافية ، القلب الحقيقى للعالم العربى . كانت الفترة الاخيرة من القرن التاسع عشر بالنسبة للعرب كما كان القرن الثامن عشر بالنسبة لاوروبا . أى كانت عصر النهوض والتوسع فى ثقافتهم التقليدية وتنوعها وتفتح آفاق جديدة ، وازدهار مثل جديدة .

كان المثل الاعلى لزعماء التطور العربى الاسلامى الحديث فى السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر هو ان اعادة تفسير وتقديم الاسلام فى شكل جديد صافيا ومتمشيا مع حاجات الحياة الحديثة

ومجتمع من الشعوب الاسلامية المتحررة من كل عبودية داخلية وخارجية . وحكم أنفسهم عن طريق نظم نيابية ، وأبرز هؤلاء جمال الدين الافغانى وتلميذه محمد عبده .

وقد كان لهما التاثير القوى على تطوره ، فالعرب يشعرون بكرامة أصلهم وبعظمة ماضيهم وبالقيم الابدية لايمانهم .

وبالاضافة الى ذلك .. كانت هناك فى السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حركة دعائية أكثر وعيا بالمشكلات السياسية والاجتماعية . ظهرت أولا فى مصر ولكن ساهم فيها السوريون بنصيب وافر وكان هذا العصر هو العصر الذهبى للصحافة العربية . فمن الصحف الدورية « الهلال » و « المقتطف » ومن الصحفيين البارزين السوريين الكواكبى وأديب اسحق وجورجى زيدان ومن البارزين المصريين قاسم أمين وعبد الله النديم ومحمد عبده . ومن الكتب « الاستبداد » للكواكبى و « تحرير المراة » لقاسم أمين .

ولا زال التاريخ يستطيع أن يحيى الصحافة العربية فى أواخر القرن التاسع عشر التعبير الهام الاول للبعث العربى فى الميدان الثقافى أكثر منه فى الميدان السياسى المقيد بايمانها النبيل بما عرف عادة بمثل القرن التاسع عشر . وهى حرية الفرد والشعوب . والاخوة الانسانية . والتقدم المستنير والديمقراطية . رغم أن الغرب كان فى ذلك الوقت يناقض هذه المثل عمليا فى علاقاته « بالشعوب الملونة » ، ومنها العرب .

الفصـــل الرابع

الحركات القومية حتى عام ١٩١٤

واذا تحولنا عن الميدان الثقافى حيث اشتركت مصر وسورية معا فى احياء التراث الادبى والفكرى المشترك ، للبعث السياسى الخاص . فان علينا أن نعالج المحاولات الاولى لتحقيق الحركات القومية فى مصر ، التى أصبح لها الآن كيان ، بصورة منفصلة عن المناطق الاخرى من الاراضى العربية الخاضعة للامبراطورية العثمانية .

كان التاريخ المحدد الذى ظهرت فيه الحركات القومية والمدنية من العرب هو عام ١٩٠٨ . وهو العام الذى وضعت فيه ثورة تركيا الفتاة نهاية لاستبداد عبد الحميد . وقبل هذا التاريخ لم يكن هناك مايدل على وجود حركات ثورية ــ فى نطاق الامبراطورية فيما عدا أوجه نشاط غامضة لبعض الجمعيات السرية .. كتلك التى وجدت فى عام ١٨٧٥ تقريبا . وكان مركزها فى بيروت. وهذه الحركة كانت تنشر مبادىء الحرية والدستورية أكثر منهامبادىء القومية والاستقلال .

وبسقوط السلطان الاحمر ظهرت آمال كبرى بين العرب وبين جميع الاجناس الاخرى غير العربية فى الامبراطورية .

العرب وزعماء ثورة تركيا الفتاة :

وعد أعضاء لجنة الوحدة والتقدم لتركيا الفتاة بالحريةالفردية والجماعية وبالنظم النيابية الحرة أو بالاختصار ، بالديمقراطية . ولكن ما أن سقط الاستبداد المركزى حتى ظهرت ، كما كان من الممكن توقعه . مطالب الاجناس غير التركية (لا العرب فحسب ، بل واليونان والسلاف والارمن والاكراد ايضا) تطالب باكثر مما

اعانته ووعدت به اللجنة ولقد وافقت اللجنة على منح العـــرب بصفة خاصة بعض الحريات المدنية وحق التمثيل فى البرلمان دون منحها الحكم الذاتى الكامل او الانسلاخ من الدولة العثمانية التى صمم الاتراك على الاحتفاظ بوحدتها . ومن هنا جاءت خيبة أمل العرب وقلقهم بعد تحمسهم الاول للثورة ، وكذا عدم تاكدالهدف فيما بين عام ١٩٠٨ والحرب العالمية الاولى .

ومن هنا ظهرت جمـــاعات سرية داخل وخارج الامبراطورية تهدف بوضوح الى الانفصال ، منها حزب اللامركزية العثمانى الذى اسسه سوريون من المهاجرين فى مصر أثناء حروب البلقـان عام ١٩١٢ ، ومنظمة العرب الفتاة فى باريس ثم فى سورية فيمـا بعد بزعامة مثقفين سوريين ومصريين وهذه الجماعات وما شـــابهها ناقشت علنا أمر تكوين دول عربية مستقلة تماما ومتحررة من كل رباط يربطها بالقسطنطينية .

وفى عام ١٩١٣ انعقد مؤتمر العـــرب فى باريس وطالب بضرورة الاصلاحات الداخلية ومنح حرية أوسع لكل من العرب والاجناس الاخرى واستخدام اللغة العربية كلغة رسمية . واختيار رسميين عرب للاراضى العربية وقصر استخدام القوات العسكرية العربية على الاراضى العربية . غير أن هذه المطالب ضرب بها عرض الحائط

لقد شـعر الاتراك أنه لايمكن أن يـكونوا سـببا فى تصـفية الامبراطورية العثمانية ولكنهم شعروا بانه من الضرورى لم شملها محتفظين لهم بمركزهم فى قيادة الاجناس التابعة . لقد استماتوا فى حروب ليبيا والبلقان ضد أى انشقاق فى الامبراطورية . وكان رد فعلهم المنطقى لمطالب القومية العـربية المتـزايدة القمع وحل جميع الاحزاب السياسية العربية .

لم تسمح الظروف الصعبة للغاية التى عمل فى ظلها الوطنيون السوريون لاية حركة سياسية كبرى بالظهور ، ولا لاية شخصية بالبزوغ . اما فى مصر فكان الحال على عكس ذلك . فخلال نفس الفترة تطورت الحياة السياسية بحرية أكبر وكان نتيجة النشاط العلنى للاحزاب أن ظهر كيان لشخصيات مماثلة للبعث العربى ،
كان اول حزب سياسى مصرى هو الحزب الوطنى الحـر الذى اسس فى عام ١٨٧٨ بزعامة محمد عبده الذى تتلمذ على يد جمال الدين الافغانى . وانضم اليه من المدنيين عبد الله النـديم وسعد

زغلول زعيم المستقبل فيما بعد الحرب . ومن العسكريين سامى البارودى وعرابى باشا وكان برنامج الحزب واضحا من اسمه . فقد أيد مقاومة التدخل من الخارج وضرورة انشاء نظام برلمانى فعال . ووضع دستور للبلاد . ولذلك فانه قبل أن يدخل فى صراع مع البريطانيين ، دخل فى صراع مع الخديوى اسماعيل ثم خليفته ابنه توفيق . فكان أول اجراء تجبر حكومة « البارودى-عرابى » الخديوى على اتخاذه هو حل المجلس الاستشارى الشكلى فى عام ١٨٨٢ واعلان قانون الانتخاب على أسس أوسع . ولكن تدخل البريطانيين أدى الى محاكمة ونفى الزعماء الوطنيين .. وبذلك انتهى الحزب .

مصطفى كامل (١٨٧٤ – ١٩٠٨) :.

واصل تنفيذ البرنامج الوطنى الذى حاول عرابى ووطنيون آخرون تنفيذه فى عام ١٨٨٢ والرجل الذى يمكن اعتباره المؤسس الفعلى للحركة الوطنية المصرية هو مصطفى كامل ، كان أكثر المنادين بمقاومة الاحتلال البريطانى تحمسا ، وكان أكثر المدافعين من مبدأ السيادة الوطنية تصميما .

كانت النقط الاساسية فى برنامجه السياسى الذى أعلنه فى خطبه الحماسية وفى صحيفة «اللواء» (التى أنشئت فى عام ١٩٠٠) وفى حزبه فيما بعد الذى أطلق عليه اسم « الحزب الوطنى » والذى أسس رسميا فى عام ١٩٠٧ ، هى انهاء الاحتلال والتدخل الاجنبى ، وتشكيل حكومة دستورية ، وهى فى جوهرها نفس المبادىء التى حارب من أجلها الوطنيون فى عام ١٨٨٢ ولكنهم خسروا المعركة ، وزيادة على ذلك أراد لتحقيق الاستقلال الكامل لبلاده اتحاد كل مواطنيه سواء أكانوا مسلمين أو أقباط . ورغم تصميمه على المطالبة بسحب جميع القوات الاجنبية من وادى النيل ، فانه أكد الحاجة الى الاتفاق والصداقة بين المصريين والاجانب .

وقد يبدو من الدهشة فى منتصف القرن العشرين أن أوجه نشاط مصطفى كامل صارت فى وضح النهار متمتعة بحرية كاملة . حتى أنه عندما وقعت حادثة دنشواى فى عام ١٩٠٦ وثورة الرأى العام المصرى ضد المحتلين استطاع مصطفى كامل أن يعبر عن

غضبه للاحكام غير العادلة فى صحيفته وفى صحف فى الخارج دون أن يلحق باذى . ولذلك أعتبره شباب المصريين زعيمهم،وانضموا اليه فى كفاحه ، ووافته منيته فى عام ١٩٠٨ ، ولا شك أن الحكم التاريخى العادل لابد وأن يعترف به كبشير للبعث السياسى لمصر الحديثة وكزعيم يتمتع بصفات الفروسيةوالكرم والمثاليةوكافضل ميراث خلفه القرن التاسع عشر .

لم يعش الحزب الوطنى طويلا فسرعان ما انحل فى عام ١٩١٢ بعد اكتشاف مؤامرة ضد الخديوى وكانت حياة « حزب الامة » المنافس الاكثر ...... الذى تولى زعامته محمد عبده أطول بقليل فعاش حتى ١٩١٤ . ولكن آراء كلا الحزبين بعثت من جـديد فى حياة مصر السياسية بعد الحرب ثم خرج من صفوف حزب الامة حزب الوفد بزعامة زغلول . لم يشترك مع مصطفى كامل فى شبابه ولكنه حمل رسالة الزعيم الوطنى الشاب نحو الانتصار فى تاريخ مصر الحديث

القومية العربية فى عهدها الاول :

غالبا ما كانت القومية العربية الاولى فى سورية ومصر (وفى اى مكان آخر) تتهم بانها تجاهلت تماما المشكلات الاجتماعية . ولما كانت تمثل صفوة المدن والطبقات الوسطى ، فقد ركزت اهتمامها كلية على مسائل الحكم الذاتى والاستقلال القومى والنظم النيابية دون أن تبدو انها مهتمة بالفروق الاقتصادية الخطيرة ومظاهر الظلم الاجتماعى التى أصابت الشعوب العربية وجميع شعوب الشرق لعدة قرون .

وبينما كانت البذور الاولى للبعث تنمو فى سوريا ومصر ، كان المغرب العربى يقع نهائيا تحت السيطرة الاوروبية الكاملة فى السنوات العشر الاولى من القرن العشرين .

وهكذا شهد العالم العربى فى السنوات الاولى من القرن العشرين المظاهر الاولى للبعث العربى .

الفصل الخامس

الحرب العالمية الأولى ونتائجها

يمكن اعتبار حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ بداية انتحار أوربا سياسيا في نظر العالم الشرقي باسره . فقد رأت الشعوب الشرقية الغرب الذي سادها بكل نفوذه الفني والادبي ، ينقسم الى معسكرات متنافسة ويمزق شمل نفسه بنفسه .

اقحم العرب في هذا الصراع . وكان من الطبيعي أن ياملوا في الاستفادة منه باستعادة حريتهم التي فقدوها. وفضلوا الاستقلال الوطني وتحرير انفسهم من الحكم العثماني ، تلك الرغبة التي جاشت في صدورهم طويلا عن التضامن العربي الشامل الذي دعت اليه الامبراطورية العثمانية عندما دخلت الحرب . أما وقد اخلف المنتصرون هذه الوعود قلبا وقالبا فكان هذا كطا جسيما يرتكبونه بعد الحرب العالمية الاولى الامر الذي خيب رجاءهم وولد فيهم الكراهية الشديدة تجاههم بعد أن ضحوا بدمائهم ومنحوهم كل تاييد .

كانت أكثر البلدان العربية التي عانت كثيرا خلال الحرب العالمية الاولى هي مصر وسوريا اللتان خضعتا لحكم العسكري التركي – الالماني القاسي الذي أدى الى أزمة اقتصادية حادة للغاية ونقص شديد في الغذاء . لقد اصبحت البلاد العربية ميدانا هاما للعمليات العسكرية الدولية .

سورية والحرب :

وفجاة وجدت سورية ، التي كانت مركز الحركات العربية التي نادت بالحكم الذاتي ، نفسها مغلوبة على أمرها نتيجة للجهود البائسة التي بذلها جمال باشا الذي قام باتخاذ أساليب دكتاتورية كالقتل ، بحجة الدفاع عن امبراطوريته المهددة . فبدت سوربة

لفترة لا حول لها ولا قوة لخضوعها لقانون الحرب العثمـانى . ولكن بزعامة الثورة العربية تولاها آخرون فى بلدان اكثر بعـدا وفى ظروف أكثر ملاءمة .

العربية السعودية والحـــرب :

كان فى شبه الجزيرة العربية نوعان من السلطة : الحكم التركى الذى ثبت أقدامه هناك فى القرن السادس عشر ، وسلطة العشائر المحلية وشيوخ الامارات المختلفة ، وكان أبرزهم شريف مـــكة . مارس هذا الامير السلطة بالوراثة منذ القرن الثالث عشر رغم انه كان يخضع للسيادة العثمانية العليا .

لم يكن حسين الامير فى ذلك الوقت غير متأثر بنيران الثورة التى كانت تجتاح العــالم العربى . وفى عام ١٩١٥ بينمـا كان الاتراك يطالبونه بمساهمته الفعالة فى الحرب المقدسة التى أعلنت أخيرا ، بدأ يقوم باتصاله الحذر مع الحلفاء لاستطلاع رأيهم فى قيام ثورة عربية .

دارت المفاوضات مع بريطانيا عن طريق المندوب الســـامى فى مصر ، مكماهون ، فيما بين يوليـو عام ١٩١٥ ومارس عام ١٩١٦ وقد ادت الى تفاهم كامل . وفى يوليو عام ١٩١٦ أعلن شريف مكة، بعد أن عاد اليه فيصل الذى كان رهينة فى سورية ، أعلن الثـورة العربية بجانب الحلفـاء وسرعان ما أعان نفســه حاكمـا على كل الحجاز تقريبا ، فيما عدا المدينة حيث ظلت هناك حامية تركية ، تحاصرها لفترة طويلة . ومن ثم ، كان الواجب الاخير للقـــوات الهاشمية بقيادة فيصل هو التقدم الى الامام من الصحراء متجهة الى خط القتال الالمانى ــ التركى الذى امتد فى فلسطين من غـزة لبير سبع فى محاولة لتحطيمه .

وكانت هذه هى الجبهة الوحيدة التى حارب فيها العرب كوحدة ذاتية وتحت قيادة فيصل بمساعدة لورنس وضابط عربى عراقى، « جعفر العسكرى » حاربت قبائل الحجاز والاردن فى الصحراء العربية السورية .

وضعت الحملات الانجليزية الفرنسية التى شنت فى عام ١٩١٧ ــ ١٩١٨ نهاية لحكم تركى دام أربعة قرون وذلك بسقوط دمشق

واستيلاء فيصل ولورنس ورجالهما عليها فىأول أكتوبر عام ١٩١٨ بعد أن ضحى العرب كثيرا .

ولا شك أنه كان من الممكن اذا صدق الامير الهاشمى الذى دخل فى ذلك اليوم عاصمة سورية كما فعل أجداده فى أيام الإنتصارات العربية الكبرى ، كان من الممكن اذا صدقت الوعود التى قطعها الحلفاء على انفسهم والاتفاقات التى عقدوها معه أن يكون هـذا الانتصار العسكرى بداية لدولة عربية حرة كبرى .

الاراضى الموعودة :

ولكن ماهى بالضبط هذه الوعود وتلك الاتفاقات ؟ فى الرسائل المتبادلة بين المندوب السامى البريطانى فى القاهرة ، مكمـاهون وشريف مكة ، حسين ، فى عام ١٩١٥–١٩١٦ (والتى نشرت بالكامل فى عام ١٩٣٨) يبدو حسين مقتنعا بانه وصـل الى تفـاهم تام مع بريطانيا حول انشاء دولة عربية متحدة تشمل منطقة الهـلال الخصيب باسرها وشبه جزيرة العرب ، اى فى كل الاراضى العربية من الامبراطورية العثمانية . ووضع أيضا شروطا خاصة بشـان المنطقة الساحلية من سورية (أى لبنان) لكونهاذات مصلحة معينة لفرنسا ، وبشان العراق (وخاصة بغداد والموصل) حيث توجـد لبريطانيا مصالح هناك . وبينما رفض حسين كل المطالب الانجلو فرنسية من ناحية المبدأ ، وافق على مناقشة هذه الشروط فيما بعد

ومن ناحية اخرى لم تذكر اية كلمة عن فلسطين ، فلم يشر اليها فى الملاحظات البريطانية اما عمدا او بالمصادفة . وبعـد مضى عشرين سنة اعلن مكماهون فى خطاب له ارسله الى صحيفة التايمز بانه حتى لم يفكر فى ذلك الوقت بجعلها ضمن الاراضى الموعودة ، فهى تخضع منطقيا وجغرافيا للعرب الامر الذى يجعلها جزءا من أراضيهم .

وانتهى الامـر الى تقسيم الاراضى العربيـة من الامبراطوريـة العثمانية طبقا للمصالح الانجلو ـ فرنسية . وادى ذلك الى وجود منطقة غربية فى الهلال الخصيب : (تضم لبنان والمنطقة الساحلية من سورية) ومنطقة أخرى شرقية تضم الجزء الاكبر من العراق . وفى هاتين المنطقتين تصير السلطة فيها ، سواء اكانت مباشرة او

غير مباشرة لانجلترا وفرنسا اما فلسطين فقد وضعت كلها باستثناء ميناءى : عكا وحيفا اللذين احتفظ بهما لبريطانيا . تحت الوصاية الدولية . وفى نوفمبر عام ١٩١٧ أصدرت الحكومة البريطانية قرارا له علاقة بالاحداث المستقبلة لفلسطين ، وهو القرار المعروف بوعد بلفور . وبمقتضى هذا الوعد يسمح بانشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين حيث تركزت آمال وأهداف الصهيونية منذ أمد طويل .

لم تكن لدى امريكا القوة ولا الرغبة فى معارضة حليفتها ، انجلترا وفرنسا . وقد احتاجت المصالح البريطانية الى السيطرة الحازمة على العراق الذى يعتبر من المناطق الحيوية وذات الاهمية الاستراتيجية الكبرى ، حيث انه يقع فى الطريق الى الهند ، وحيث أن آبار الزيت فى الموصل تقع فى أراضيه . وكانت فرنسا أكثر اهتماما بادعاءاتها القديمة فى نشر الايمان والحضارة والثقافة فى سورية ولبنان . لقد شعرت الدولتان ، انجلترا وفرنسا بان من واجبهما ومن حقهما التدخل فى المشاكل الحساسة المناطق المقدسة التى عقدها أكثر وعد بلفور .

وهكذا ظهر فى أوج الانتصار الاستعمارى النظام الدولى للانتداب الذى كان يهدف أولا الى الاعتراف بمبدأ تقرير المصير للشعوب بتعلمها التدريجى للحرية ذلك التعلم الذى من الصعب وضع حدود له وامتداد نطاق تطبيقه على الشعوب العربية التى انسلخت من الامبراطورية العثمانية فيما بين عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٠ .

وهكذا انتهى الحلم بانشاء دولة عربية عظمى متحررة ومتحدة وكان الاتحاد هو أول مثل أعلى كان مصيره التلاشى . لقد أدى مبدأ « فرق تسد » بانجلترا وفرنسا الى تشجيع كل خلاف محلى قد يؤدى بدوره الى تقسيم الدولة العربية الى دول منفصلة .

دمشق تسقط فى أيدى الفرنسيين

اقتصرت سيطرة شبه الجزيرة العربية التى كان من المفروض ان تصبح نواة للدول الجديدة كما كانت للامبراطورية القديمة ، على أراضيها . واستمتع الامير الهاشمى بحلم مملكة سورية حتى عام ١٩٢٠ ولكن بينما أعلن نفسه فى مارس من هذا العام ملكا على

سورية ، صدق مؤتمر سان ريمو فى ابريل على مبدا الانتداب مؤيدا منح سورية ولبنان لفرنسا . وفلسطين لبريطانيا . ولم يدم الحكم المشترك القصير بين فرنسا والهاشميين فى سورية الا اشهر قليلة . وانتهى بالقوة عندما شتتت مدفعية الجنرال جوردو قوات فيصل التى تجمعت على وجه السرعة بالقرب من دمشق (فى يوليو عام ١٩٢٠) ومن ثم كان عليه ان يغادرها الى الابد

اتخذ نظام الانتداب شكله النهائى فيما بين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٤ باعلان القرارات التى اصدرتها عصبة الامم . وبدلا من أن يتحقق أمل العرب فى قيام دولة عربية متحدة . وجد العرب أنفسهم منقسمين فى دول أقليمية ــ بعضها ملكية (العراق والاردن) ــ وبعضها جمهورية « لبنان وسورية » وواحدة دون اى طابع سياسى محدد « فلسطين » ولكنها جميعا كانت تخضع لسيطرة المندوبين الساميين البريطانيين أو الفرنسيين . ولكل منها بدا تاريخ منفصل ، رغم أنها جميعا شاركت فى خيبة الامل والمرارة نتيجة للضربة غير العادلة التى وجهت لبرنامج الاتحاد والاستقلال القومى . وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية كانت فى وضع أفضل مما كانت عليه عند نشوب الحرب العالمية الاولى . ولكن الطريقة التى نفذ بها هذا التقسيم ساهم فى ظهور سلسلة من الازمات السياسية وفى حلول فترة جديدة من القومية العربية . وكانت هذه الفترة التى تميزت بهذا الطابع القومى هى اقرب الفترات لعصرنا الحاضر .

كانت معارضة انجلترا الشديدة فى مرحلة الانتقال ، لحركة التحرير المصرية ذات طابع استعمارى . فقد كشف الاحتلال البريطانى نفسه باعلان الحماية البريطانية على مصر . ولكن بمجرد أن انتهت الحرب العالمية الاولى وناقشت مبادىء ولسن فى تقرير المصير فى كل مكان ، هبت مصر تطالب بالاستقلال الذى فشلت فى الحصول عليه طوال الخمس والثلاثين سنة السابقة .

شكلت جماعة من الزعماء المصريين وعلى راسها سعد زغلول من نفسها وفدا للاشتراك فى مؤتمر السلام القادم . وكان رد البريطانيين هو منع الوفد من الذهاب الى باريس . وبنشوب الاضطرابات نتيجة لذلك قبض على سعد زغلول هو وثلاثة زعماء

وطنيين آخرين ورحلوا الى مالطة (فى مارس ١٩١٩) . ولكن الاضطرابات ازدادت سوءا ، الامر الذى أرغم اللنبى الذى عين مندوبا ساميا فى مصر الى اتباع سياسة التسوية . فأطلق سراح المنفيين وسمح لسعد زغلول بالذهاب الى مصر .

حاولت بعثة ملنر (فيما بين ديسمبر عام ١٩١٩ — ومارس ١٩٢٠) ايجاد تسوية مع آمال المصريين بعد فشلهم فى حضور مؤتمر باريس . ولكن المفاوضات كانت غير مثمرة . فعاد البريطانيون الى سياسة القوة من جديد بالقاء القبض مر اخرى على سعد زغلول ونفيه الى صقلية . ولكن رد الفعل العنيف اضطرهم الى محاولة الوصول الى تسوية . فأعلنت بريطانيا فى ٢٢ فبراير عام ١٩٢٢ انهاء الحماية واستقلال مصر بشروط أربعة جعلت هذا الاستقلال شكليا . وهذه الشروط خاصة بحماية مواصلات الاستعمار فى مصر . والدفاع والشئون الاجنبية . واخيرا السودان . وأصبح السلطان فؤاد ، وهو الابن الشاب لاسماعيل . الذى خلفه الخديوى المعزول فى عام ١٩١٧ الملك الاسمى على مملكة مصر (المستقلة) مع استمرار الاحتلال البريطانى

لم يعترف « الوفد » باعلان ٢٨ فبراير البريطانى ويرجع نجاح الخطوة الاولى التى اتخذت نحو الاستقلال الفعلى الذى يمكن مصر من استعادة وضعها الدولى من جديد وانتهاء النظام العسكرى المحض والتمهيد لحياة برلمانية يرجع أولا الى الشعب المصرى بأسره لتاييده فى تلك السنوات من الكفاح بروح متحدة عجيبة فقد وقف المسلمون والاقباط والرجال والنساء والطلبة والفلاحون جميعا يدا واحدة فى هذا الكفاح ولم يبدأ الصراع الحزبى فى مصر الا فى عام ١٩٢٢ بصدور اول دستور وقيام اول نظام برلمانى . كانت السياسات المصرية الداخلية لمدة ثلاثين سنة قاصرة على الصراع بين بريطانيا والقصر والاحزاب السياسية .

الفصل السادس

الدول العربية فيما بين البحرين

رغم المعاناة والتضحية وخيبة الامل ، فان الحرب العالمية الاولى اتاحت للعرب الفرصة لاتخاذ خطوة فعالة نحو تحقيق اهدافهم ورغم الاعياء الواضح للاستعمار فى اوربا بعد الحرب ، فان الحقائق أثبتت أنه من المستحيل العودة الى الوراء ، وان البنيان الاستعمارى الذى يخفى فى طياته الاهداف القديمة للسيطرة والاستغلال ، قد كتب عليه ، ان عاجلا أو آجلا الانهيار

كان الكفاح بين المعلمين والطلبة ، بين المتولين أمور الحماية والمحميين هو الذى ساد فترة العشرين سنة فيما بين الحربين عن آخرها ولم ينته حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية بفترة طويلة.

وفيما بين الحربين ساهم عامل آخر فى اذكاء روح السخط والكراهية والقلق فى نفوس العرب ، وهذا العامل هو مشكلة فلسطين التى خلقتها بريطانيا خلال الحرب العالمية الاولى وتركتها دون حل للحرب العالمية الثانية وما بعدها لقد ساعدت الاحداث فى فلسطين على تقوية الشعور الممزوج بخيبة الامل والظلم الذى كان النتاج العام للحرب العالمية الاولى . وأصبح العرب مؤمنين بانه ليس من الممكن الحصول على العدالة الا باستخدام العنف وصمموا على ذلك بالارهاب أولا ثم بالحرب المنظمة ثانيا ، رافضين هذه الطريقة من التسوية التى حاولها فيصل ووايزمان فى عام ١٩١٩ .

وسننتقل الان الى استعراض تاريخ كل دولة عربية فى هذين العقدين المضطربين فيما بين الحربين ، محاولين تتبع خطوط تطورها

محاولات العربية السعودية :

حدثت تغيرات هامة خلال هذه الفترة فى داخل العربية

السعودية التى كان من المفروض ، طبقا لخطة الملك حسين ، ان تكون قلب الدولة العربية المتحدة العظمى . ولم يضع تقسيم الحلفاء النهائى للمنطقة نهاية لخطته فحسب ، بل تركت ملك الحجاز وشأنه فى اللحظة التى ظهر فيها عدو جديد من داخل العربية السعودية نفسها . وكان هذا العدو هو سلطان نجد ،عبد العزيز بن سعود الذى بيته خلال العشرين سنة السابقة أمرا لاستعادة سلطة أجدادم ضد الامراء المنافسين . ولما لم تراوده أفكار الوحدة العربية الشاملة ، فانه لم يتحرك خطوة خلال الحرب لمساعدة ثورة الهاشميين ، ولكنه فضل الانتظار ومد وتدعيم حكمه فى شمال ووسط العربية السعودية حتى حدود الحجاز .

وفى عام ١٩٢٤ اعلن الملك حسين بعد رفضه الرضوخ للاتفاقات المقترحة مع بريطانيا التىتتضمن الاعتراف بالنظام الجديدللشرق الادنى أعلن نفسه خليفة لجميعالمسلمين . وكان ذلك بدايةتحطمه، اذ أن ابن سعود بدأ فى الحال أعماله العسكرية من أمارة نجد المنافسة للحجاز وفى أشهر قليلة حطم مملكة الحاكم الهاشمى المعزول . وقضى صنيعة الاستعمار بقية حياته فى المنفى فىقبرص أولا ثم فى عمان مع ابنه عبد الله وبينما كانت الآفاق تتفتح لاسرته من جديد خارج شبه الجزيرة العربية فى شرق الاردن بنفسهاوفى العراق ، كان الحكم السعودى يثبت اقدامه فى الحجاز . ولميبق خارج المملكة العربية السعودية كما سميت الدولة الجديدة فى عام ١٩٣٢ والتى تمثل ثلثى شبه الجزيرة العربية ، غير اليمن التى حكمها « امام » والسلطنات المختلفة فى شبه الجزيرة التى تخضع كلها للحماية البريطانية .

وباكتشاف البترول فى العربية السعودية سمح بتسربالنفوذ الغربى اليها فى نطاق الميدان الاقتصادى والفنى المحض ، ولكن لم يسمحبتسربه بتاتا الىالميدانالسياسى . فبدأ الراسمال الامريكى (ممثلا فى شركة ارامكو للبترول) يستغل آبار الزيت الضخمة فى العربية السعودية منذ عام ١٩٣٣ حتى الان . أما السلطة السياسية فكانت كلها فى يد الملك سعود . وكانت دولته تخضع للحكم الكلى .

مملكتنا الهاشميين :

انتقلت الاسرة الهاشمية التى طردت من وطنها الام ، الحجاز الى الجزء الشرقى الذى يشكل دولتا شرق الاردن والعراق . لم يتمخض عن حكم الاولى التى كانت أولا امارة ثم أصبحت فيما بعد عام ١٩٤٦ . مملكة يحكمها ابن حسين ، عبد الله ، طوال العشرين سنة هـذه ، لم يتمخض حكمها فى تلك السنوات على الاقل عن احداث تذكر ، طالما ان ارضها كانت فى الغالب صحراوية ، وسكانها من البدو بصفة رئيسية ، واحوال معيشتها لاتختلف عن مثيلتها فى شبه جزيرة العرب ، وكانت الحياة السياسية هناك محصورة فى العلاقات بين رأس الدولة وسلطان الانتداب التى اعتبر الملك عبد الله طوال العشرين سـنة هـذه الحاكم المخلص لهـا الذى يمكن الاعتماد عليه ..

وكانت السياسات الداخلية فى العراق ابعد ماتكون عن الهدوء والاستقرار نتيجة للمشاحنات والمنازعات والمصادمات المختلفة بين العناصر الطائفية والطوائف الدينية والجماعات المختلفة .غير أن نقص التعليم السياسى المستمر أتاح الفرصة للمؤامرات والانقلابات الكثيرة البعيدة كل البعد عن الحياة السياسية . ومن ثم كانت الانقلابات العسكرية فى عام ١٩٣٦ وعام ١٩٣٧ الدامية

الفرنسيون وسورية :

وما حدث فى العراق ومصر على أيدى البريطانيين حدث فى سوريا ولبنان على أيدى الفرنسيين ، ولم يقابل ذلك فى الغالب الا بالكراهية والثورة وقد بدأ المنتصرون بتمزيق شمل وحدتها التاريخية باستقطاع فلسطين أولا ثم لبنان (الذى زادت رقعته فشملت اكثر من المنطقة الجبلية ، أى المنطقة الساحلية باكملها، وفى الداخل جزءا كبيرا من بيروت ودمشق) ثم انتهت أخيرا الى تقسيم ماتبقى الى وحدات ادارية صغيرة « وهى دمشق وحلب وجبل الدروز ولواء الاسكندرونة التى لم تدمج كلها باستثناء الاخيرة فى جمهورية سورية واحدة الا فى عام ١٩٣٦ »

وكان السبب الذى أعلن تبريرا لبعض هذه التقسيمات الفرعية هو تعدد العناصر الطائفية وأهم ذلك العقائد الدينية ، والحاجة الى حماية الاقليات وهذا هو السبب التقليدى للاستعمار الذى

استخدمه كمبرر لقمع الاغلبية . وبينما كانت القومية العربية تبذل كل جهد لتحطيم القيود التى بين اقليم وآخر لتكوين بلد واحد أكبر . كانت فرنسا تطبق المبدأ المضاد . وبعد أن طرد الجنرال جورودفيصل بقوة السلاح هنأ نفسه والسوريين بتحريرهم من الحكم الحجازى .

طبق الانتداب فى لبنان بصورة أكثر سلمية . ولكن لم تخل من مصادمات ، نظرا لوجود روابط أقدم وأقوى بفرنسا . وطالما أن نصف السكان تقريبا كانوا من المسيحيين ، وان الاعمال التبشيرية والتعليمية النشطة كانت تجرى على أيدى فرنسيين . وكانت اللغة الفرنسية هى اللغة القومية الثانية تقريبا فى لبنان . كما ظلت جامعة جيزويت فى بيروت لمدة طويلة المركز الحى للثقافة والعلم الغربيين ، بجانب الجامعة الامريكية .

ورغم كل ذلك كان التطلع نحو الاستقلال يزداد وضوحا فى لبنان رغم انه كان محليا حتى يمكن الاحتفاظ بالتوازن بين المسيحيين والمسلمين ذلك التوازن الذى قد يفقد اذا أعيد ضم لبنان الى سورية . وما حدث فى سورية حدث فى لبنان أيضا . اذ أنهت معاهدة التحالف التى أبرمت فى عام ١٩٣٦ الانتداب .

وفى أقصى شمال سورية احتفظ لواء الاسكندرونة بمصير خاص ومنذ عام ١٩٢١ منحت الاتفاقية الفرنسية ـ التركية للاقلية التركية مطلق الحرية فى استخدام لغتها وتطوير ثقافتها . ومن هنا جاءت مطالبة تركيا بهذا الاقليم وتجاهل حقوق السوريين وحقوق العرب ، التى تكفلت فرنسا سيدة « فرق تسد » بالمحافظة عليها . وحدث انفصال الاسكندرونة عن بقية سورية التى كانت دائما متحدة معها تاريخيا باعلان الحكم الذاتى فى عام ١٩٣٩ . ووافقت عليه فرنسا نهائيا . وجاء ارتباطها بتركيا فى نفس السنة تحت التهديد بالحرب فى صيف عام ١٩٣٩ . وانتقلت ملكيتها اليها فى معمعة الازمة العالمية دون أن يلاحظ ذلك أحد تقريبا ، ولكنها ظلت حية فى ذاكرة العرب وظهرت فى الايام الاخيرة كمظهر لقوميتهم الاكثر طموحا .

مشكلة فلسطين :

ان الجدير بالملاحظة فى هذه المشكلة هو أن وعد بلفور لاقامة

« وطن قومى لليهود » فى فلسطين لم يعن بالضرورة باقامة دولة (ولم يكن هناك اية اشارة واضحة لدولة فى اتفاق فيصل مع سايسر بيكو ولكن كان من الطبيعى أن ترى المثل الصهيونية القديمة . بهذا الشكل وتعرف كلمة « وطن » بأنه الدولة العبرية المستعادة فى اسرائيل . وعلى أية حال ، بدات هجرة اليهود الى فلسطين بعد الحرب مباشرة . وفى عام ١٩٣٩ بلغ عدد اليهود فى فلسطين نصف المليون مقابل مليون عربى « بينما كان عددهم منذ عشرين سنة ستة آلاف فقط »

بدات عملية تحويل الاراضى من العرب الى اليهود . وعندما ادرك العرب المحليون خطر هذا التيار اليهودى المتدفق من المهاجرين بدأوا فى الاحتجاج أولا بالمقاطعة ثم باثارة الراى العام ، ثم استخدام العنف . بينما استمر اليهود الذين ساندهم وعد بلفور والراى العام الانجلو ـ أمريكى فى التدفق الى فلسطين التى شعر الكثير منهم بأنها المأوى الامين لهم .

الفصل السابع

الحرب العالمية الثانية والتجمعات الجديدة

ركزت فرنسا قواتها العسكرية فى سورية والبلدان المجاورة . وكان من المفروض ان تحمى هذه القوات المنطقة من الهجمات الالمانية ، ولكن هذه القوات قد حلت ، بعد هزيمة فرنسا وعقد هدنة مع المانيا . دون اطلاق قذيفة واحدة .

العراق فى عام ١٩٤١ . ثورة رشيد على الكيلانى :

واثناء ذلك ، قامت بريطانيا فى العراق بقمع انطلاق للقومية العربية ففى ربيع عام ١٩٤١ استولى رئيس وزراء سابق ، وهو رشيد على الكيلانى على السلطة بعد قيامه بانقلاب ، واجبر عبد الاله والملك الصبى فيصل الثانى وغيرهما من الزعماء السياسيين الموالين للبريطانيين على الهروب من البلاد وكانت هذه اجرأ خطوة تتخذ فى أرض عربية ، ولكن سرعان ما أدى تدخل القوات العسكرية بقيادة بريطانية الى انهاء الثورة بعد أسابيع قليلة من النضال غير المتعادل . وعاد ولى العهد والملك وغيرهما من المنفيين الى البلاد ، بينما هرب رشيد على الكيلانى والمفتى الذى ساندم الى ايطاليا ، وارتبطت العراق بانجلترا على طول الخط

لم يكن الوقت مهيأ لاتحادات سياسية حقيقية ، ولكن مزايا التضامن بين الدول العربية المتخلفة ظهر بوضوح فى ضوء المشكلات التى سببتها الحرب حتى انها حثت مصر على تبنى منظمة سياسية اقليمية لحماية سيادة الدول وفى الوقت نفسه لتوحدها من أجل المصلحة المشتركة . وكان هذا هو أصل الجامعة العربية . بينما ضمنت دول الشرق العربية لنفسها . باعلان الحرب على المانيا مقاعد لها فى الجمعية العامة للامم المتحدة وافتتحت جامعة الدول بالعربية رسميا فى القاهرة فى ٢٢ مارس عام ١٩٤٥ وضمنت مصر والعربية السعودية والعراق وسورية ولبنان وشرق الاردن ثم

اليمن فيما بعـد . وأعلن أن الغرض من الجامعـة هو « تقوية العلاقات بين الدول العربية وتنظيم الخطط السياسية التي تهدف الي التضامن فيما بينها ، ولحماية استقلالها ووحدتها ، ومناقشة شئون ومصالح العالم العربي بوجه عام » .

لم تنضم اليها تونس وليبيا ومراكش الا بعـد أن حصلت كل منها علي استقلالها .

اثار انشاء أول منظمة تضم شمل العرب حماسا هائلا وآمالا كبرى عند أولئك الذين رأوا فيها خطوة نحو وحدة الاجزاء المتفرقة المشتتة من العالم العربى .

لم يكن نشاط الجامعة العربية من البداية قاصرا على الميـدان السياسى فحسب ، ولكن النية كانت متجهـة أيضا نحو تغطيـة المسائل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ولابد أن يؤول شـطر كبير من التقدم للجامعة وللشعور الجديد بالوحـدة الذى عبرت عنه . بعد أكثر من عشرين سنة من الولاء الاقليمى . الخروج عن كل شكل من اشكال الذاتية فى الميدان السياسى والعودة الى تبنى آراء الوحدة التى مهدت للبعث .

وكانت مشكلة فلسطين دائمـا المشكلة العـاجلة التى لم تحل للعالم العربى باسره فى نهاية الحرب كما كانت فى بدايته . وقـد شهدت سنوات الحرب الاولى نوعا من الهدنة مفروض على العرب ولـكن عندما اتخذت مطالب اليهود بتكوين دولة حقيقية وفعالة لهم . شكلا تعقدت الامور من سيء الى أسوأ .

ومن عام ١٩٤٣ حتى تنفيذ قرار التقسيم فى عام ١٩٤٨ بدا ان السياسـة البريطانية ، التى كانت دائما تتصف بالتحيز لليهود . تظهر وتنمو . وأمريكا أيضا أيدت المطالب الصهيونية علانية .

الارهاب الصهيونى :

شهدت فلسطين بعد خلق دولة اسرائيـل موجة من الارهاب والعنف وكان أبرز ضـحايا هـذا الارهاب اليهودى هو الـكونت برنادوت مبعوث الامم المتحدة الذي قتل بايد صهيونيـة والذى فقد حياته فى محاولة لتسوية النزاع بين الفريقين المتخاصمين ،

الفصل الثامن

حلف بغداد

اتخذت العلاقات الانجلوعراقية الاخيرة شكلا جديدا فى حلف بغداد الذى نوقش كثيرا . والذى اعتبرته القومية العربية كعودة جديدة للاستعمار البريطانى الى الشرق الادنى والاوسط . كانت نواته ، هو الاتفاق المباشر بين العراق وتركيا « الذى وقع فى بغداد فى فبراير عام ١٩٥٥ » ثم انضمت اليه بعد ذلك ايران ، وباكستان

وفى ابريل وقعت بريطانيا ايضا اتفاقا مع ايران فى نطاق الحلف وقد كون منطقة دفاعية فى الشرق الادنى والاوسط لصد اى هجوم من الشمال ونظمته بريطانيا لحفظ التوازن فى الشرق الادنى . والاهم من ذلك ضمان الوصول بحرية الى ابار الزيت الغنية . وكان دخول العراق فى حلف تتولى رعايته بريطانيا بمثابة انشقاق خطير فى اتحاد العرب الذى كانت الجامعة العربية بمثابة الخطوة الاولى نحو الوصول اليه .

كان الشخص الذى جر العراق الى مثل هـــذه الاتفاقات مع بريطانيا والذى تبنى سياسة موالية لبريطانيا . هو نورى السعيد الذى وجه الاحداث السياسية فى العراق منذ بداية الثورة العربية ضد الاتراك حتى ايامنا هذه . كان صاحب فكرة اتحاد الهلال الخصيب منذ عام ١٩٣٢ . ولكن الخطوة الحقيقية فى هذا الاتجاه قد اتخذت فى شكل الاتحاد الفيدرالى بين العراق والاردن فى فبراير عام ١٩٥٨ . واتهم مرارا بالفساد والاستبداد والدكتاتورية المقنعة وتعاونه مع الغرب . وظل على هذا الحال حتى اطاحت به وبالملكية فى العراق ثورة يوليو ولم يبلغ أى دكتاتور عانت منه البشرية ،ومازالت تعانى منه كما بوغت «كلب المستعمرين» نورى السعيد ، بمثل هذه السهولة .

الملك عبد الله ملك الاردن :

ادار سياسة الدولة الهاشمية الاخرى بتوجيه أسياده الانجليز أيضا حتى لقى الملك عبد الله حتفه آخر من بقى على المسرح من ايام ثورة حسين لورنس العربية .

ومن أجل توسيع ملكية الاردن ــ ظل عبد الله يتبنى حلم وحدة الهلال الخصيب الذى من اجله خرج أباه من وطنه الصحراوى . ومن ثم هدد الاقليمية السورية واللبنانية . وأثار غضب باقى العرب فى عدائهم لاسرائيل بامكانية وصوله الى اتفاق معها . وجاءت نهايته باغتياله فى القدس « فى ٢٠ يونيو عام ١٩٥١ » . وبعد فترة قصيرة من حكم ابنه طلال المعادى لانجلترا ، خلفه على عرش الاردن ابنه حسين .

مصر الحسرة :

خرجت مصر من الحرب العالمية الثانية وهى فى مركز الزعامة الادبية بين الدول العربية . ولكنها واجهت أيضا مشكلات مالية واقتصادية واجتماعية كانت فى حاجة الى حل لها .

جرت المفاوضات لتحقيق هذه الغاية من وقت لاخر . ولكن بريطانيا كانت دائما تماطل فى الوصول الى اتفاق نهائى بهذا الشأن حتى قيام الثورة المصرية فى يوليو عام ١٩٥٢ ورسوخ أقدام ناصر فانهى اتفاق ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ فى الواقع فتره الاحتلال العسكرى البريطانى للاراضى المصرية التى احتلت فى سبتمبر عام ١٨٨٢ . وهكذا تحقق أول مبدأ من مبادىء مصطفى كامل « الحرية فى أراضينا » .

وأثناء ذلك كانت القوات المسلحة المصرية تمر بازمة مادية وأدبية خطيرة ففى عام ١٩٤٨ منيت فى حملتها ضد اسرائيل بهزيمة منكرة نظرا لفساد الإسلحة وعدم تسليحها تسليحا كاملا . ولكن مهما كانت أسباب الهزيمة . فان الخطا الخطير الذى ارتكبه الملك هو انه لم يحسب حسابه لاستياء ومرارة الجيش . وأنه اضاف مزيدا من الوقود للنار باسرافه الخاص وبتدخله ومحسوبيته ومجونه ولم يكن هذا بالشيء الجديد فى تاريخ مصر الحديث طالما ان جميع أسلافه اعتبروا انفسهم كورثة شرعيين لمحمد على أى الحكام المطلقين للبلاد بدلا من أن يكونوا حكاما لملكية دستورية . ولكن الوطنية المخلصة بين طبقة الضباط الشبان لم تستطع تحمل هذا الوضع اكثر من ذلك . ومن هنا جاءت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

الثورة المصرية (١٩٥٢)

وفى ذلك اليوم قام الضباط الاحرار بطرد الملك فاروق بعد اجباره على التنازل عن العرش لابنه الطفل فؤاد الثانى فى ١٨ يونيو عام ١٩٥٣ أعلن انتهاء حكم أسرة محمد على وقيام الجمهورية

وقام ناصر بتنفيذ برنامج سياسى واقتصادى واجتماعى ضخم تضمن حل الاحزاب ، وأعلان دستور جديد ، وتحديد الملكيات والغاء الالقاب . وتوزيع الثروة ووسائل الانتاج ، والاهم من ذلك تحقيق الاهداف القومية فى السياسة الخارجية .

فبعد الوصول الى اتفاق عام ١٩٥٤ الذى نص على جلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة فى ظرف عشرين شهرا . قام رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر بتاميم الممر المائى الدولى الحيوى ففتح بذلك أهم صفحة فى تاريخ البحر الابيض المتوسط الحديث

مسالة السويس .

يمكن تلخيص تفاصيل ازمة السويس على الوجه التالى . أعلن ناصر تاميم قناة السويس فى يوليو عام ١٩٥٦ . ردت فرنسا وبريطانيا على ذلك بالاحتجاج وعرض الدخول فى مفاوضات أولا ثم باتخاذ اجراء عسكرى مهدت له اسرائيل بهجومها على شبه جزيرة سيناء فى أكتوبر عام ١٩٥٦ . نزلت قوة أنجلو ــ فرنسية على شاطىء بورسعيد . وكان من نتيجة ذلك أن اغلقت القناة ووقف المصريون خاصة والشعب العربى عامة والشعوب الحرة فى وجه الاعتداء الامر الذى ادى الى عدم نجاح الحملة الانجلو فرنسية

وكان انسحاب الدولتين الغربيتين وجلاء قواتهما عن الاراضى المصرية فى ديسمبر عام ١٩٥٦ وبعد ذلك جرت مفاوضات مباشرة متوالية بين مصر وشركة قناة السويس ، التى تمثل فى الواقع انجلترا وفرنسا . انتهت الى اعتراف الدولتين بالامر الواقع . اى بالتاميم . وتركهما يجران أذيال الفشل والهزيمة نتيجة لتدخلهما العسكرى .

وكانت من نتيجة هذه الازمة التى بدت فى خريف عام ١٩٥٦ كما لو كانت ستجر العالم باسره الى حافة حرب عالمية ثالثة . اذ

خرج ناصر منها منتصرا . وبدت انجلترا وفرنسا فى نظر العالم العربى أنهما عادتا الى أساليب الغرب القديمة ، التى لم تنسى بعد نحو الشرق . وبدا حاكم مصر الذى لم يتهاون فى ارسال الضربات التى وجهها الى الاسرائيليين فى سيناء . والقوات الانجلو-فرنسية فى منطقة القناة بطلا لازال على صهوة جواده لابسا ملابس المدافع عن بلاده وعن الحق . وأصبح . للعرب دليلا حيا جديدا على أن الاستعمار لم يمت بعد . وظلت القناة مغلقة لمدة سنة . وارتفعت اسعار البترول اكثر من ذى قبل . واخيرا وضعت عودة العلاقات الدبلوماسية نهاية محددة للجدل المؤلم العنيف الذى بدا فيه العالم الغربى منقسما وعدوانيا وضعيفا .

الفصل التاسع

بعث المغرب

شهدت فترة مابعد الحرب الثانية التحرر الكامل تقريباللمغرب العربى . وكنتيجة ، للخاتمة الطبيعية لطريق طويل شاق لقد نظر عرب الشرق والمغرب على السواء الى امتداد شمال افريقيا — غربى مصر دائما على أنه منطقة عربية وجزء من العالم العربى له صفاته الخاصة التى تميزه دون فصله عن بقيته . لقد فرض العرب أنفسهم على شعوب هذه البلدان التى استوعبت الاسلام واللغة والثقافة العربية بسرعة ، ولكنها اضافت لهـا بدورها خصائص من سيكولوجيتها وعاداتها ومعتداتها الخاصة .

وفى القرن التاسع عشر والعشرين كان شمال أفريقية كله مفتوحا للاستعمار الاوروبى كمنطقة ناضجة لاستعماره . وكمصدر للربح غير أن تدفق الازمات الدولية الاخيرة وبعث العرب فى الشرق كانا لهما رد فعل سريع وفعال بصورة لم تكن متوقعة فى الغرب . فتحررت ثلاثة أرباعه من الاستعمار الاوروبى فى أقل مما عقد بقليل

كانت ايطاليا وفرنسا الدولتين المتزعمتين لهذا التغلغل فى شمال افريقية . ولكنهما اضطرتا الى الجلاء على وجه السرعة منها ، كانت ايطاليا ، اخر القادمين وأول المطرودين من ليبيا .

هناك بعض الدوافع خلف معارضة فرنسا لاستقلال الجزائر وهى المصالح الاقتصادية ممثلة فى الملكيات والاستثمارات الصناعية والامال الجديدة البراقة فى بترول الصحراء . وكل هذه العوامل تؤدى مباشرة الى صلب ماساة الجزائر التى لم تحل بعد . ولكن لابد أن تحدد أولا طرق التحرر وفعلا قد حدده الابطال الجزائريون

الجزائر

كانت السياسة التى اتبعتها فرنسا مع عرب الجزائر لجعلهم

ضعفاء هى نفس السياسة التى اتبعتها لمدة طويلة فى تونس ومراكش ، أى منح امتيازات شكلا ليست لها قيمة فى الجوهر . واعطاء كلمات ووعود ـ التى تناقضها الحقائق رغم الوعى بالحقوق والمطالب القومية يزداد نموا وتنمو معه الكراهية نحو الغرب ، تلك الكراهية التى كان من الممكن أن يتجنبها الغرب . ولا سيما فى الجزائر . لو انه وجه الدعوة لاهل البلد للمساهمة فى ثرواته الروحية والمادية وكان نتيجة الفشل فى الوصول الى ذلك مانراه الان من تعقد فى الموقف ومن تقرح فى جسد فرنسا الذى مازال مستعصيا علينا معرفة كيف ومتى يمكن شفائه .

يمكن تتبع بدء الحركة الوطنية الجزائرية من فترة مابعد الحرب الاولى عندما قام الجزائريون ليعبروا عن رغبتهم فقط فى المساواة فى الحصول على مزاياهم . ومن هؤلاء فرحات عباس رئيس وزراء حكومة الجزائر الذى بدأ نشاطه السياسى كرجل معتدل يشارك فى امكان قيام أمة وبلد جزائرى .

وشهدت المراحل التالية من الحركةالوطينة « بيان الشعب الجزائرى » الذى ادلى به فرحات عباس فى عام ١٩٤٣ والذى تضمن وجهات نظر الحكومة الجزائرية وهدف هذه الحركة هو « اعلان جمهورية جزائرية تتمتع بالحكم الذاتى . وهذا أمل كان يراود جزءا من الرأى العام الفرنسى على الاقل ، حتى وقت حديث للغاية ، وكان سيجده مقبولا وحتى مرغوبا فيه كحل لمشكلة الجزائر . ولكن فرنسا ردت على ذلك بحل الحركة والقبض على فرحات عباس وشهد عام ١٩٤٥ اكثر الحوادث التى سفكت فيها الدماء قبل الثورة العامة فى عام ١٩٥٤ عندما أسفرت عمليات القمع العسكرى ازهاق أرواح ثمانية أو عشرة الاف ضحية . وفى السنة التالية اسس فرحات عباس «الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى الذى شكل بانضمامه الى الحركة من أجل نصرة الحريات الديمقراطية» الجماعة الوطنية الرئيسية حتى الثورة .

وتحت ضغط هذه الافكار وتلك الاحداث ، أصدرت فرنسا فى سبتمبر عام ١٩٤٧ القانون الذى اسمته بالقانون الاساسى للجزائر وقسمت الى ثلاث مناطق ، بينما منحت المواطنة الفرنسية لجميع الجزائريين ، مع التميز رغم ذلك بين المواطنين الفرنسيين والمواطنين الجزائريين الذين يمثلون الغالبية العظمى من العرب فى الجزائر .

وأسست جمعية جزائرية محلية ، تختص بالنواحي الادارية أساسا يقوم بانتخاب أعضائها الفئتان المذكورتان آنفا ، وهما الجزائريون الفرنسيون والعرب .

ورغم هذا التقسيم غير العادل الذى قصد به منع وجود اغلبية عربية عظمى فى الجمعية . فقد اعتبر الرسميون والمستعمرون الفرنسيون المحليون قانون ١٩٤٧ كامتياز خطير وغير متوقع ورتب أمر اجراء الانتخابات التى جاءت بعد ذلك بطريقة تضمن عـودة الممثلين المؤيدين للمصالح الفرنسية حتى فى القاعة المحلية للجمعية . وكان هذا الانتهاك غير العادل للامتياز الجزئى الذى كفله القانون بداية لخيبة أمل الوطنيين الجزائريين ولانتهاجهم وسائل أكثر تطرفا أدت الى الثورة المسلحة .

الثورة الجزائرية (١٩٥٤) .

اندلعت الثورة فى أول نوفمبر عام ١٩٥٤ ، وكان هذا اليوم قد حدد من قبل لقيام الثورة فيه بقيادة لجنة العمل والوحدة الثورية التى تضمنت قواد من المتطوعين نظمت تنظيما للقسم بالكتابة والمقدرة . وهى المعروفة بجبهة التحرير الوطنى . وتضم غالبية الثوار ، وظهرت جماعة منشقة بزعامة المصالى لتمتد تعاليمها من فرنسا . اتخذت لها اسم الحركة الوطنية الجزائرية ولما كان الثوار يزودون بالعتاد والمؤن من قواعد سرية عبر تونس ومراكش ، فقد سيطروا فى بادىء الامر على المنطقة الشرقية من الجبال ، ثم اقحموا الجزائر باكملها فى حرب عصابات دامية ،لم يستطع الجيش الفرنسى المنظم بعد ، رغم استخدامه رجال ومعدات باعداد وكميات هائلة ، أن ينجح فى قمعهم .

لم يكن التبديد الفظيع فى الدماء والممتلكات الذى كبدته حرب الجزائر لفرنسا « فطبقا للاحصائيات تتكبد فرنسا حوالى ألفى مليون فرنك سنويا » الثمن الوحيد الذى دفعته فرنسا لروحها الاستعمارية القديمة العنيدة . فالخسارة الادبية التى عانت منها الجمهورية البالية كانت اشد خطورة لانها اضعفت مركزها فى دول المغرب الجديدة وفى العالم العربى بوجه عام . وفى الواقع ، كانت وسائل التعذيب والقمع المخجلة التى اتبعتها فرنسا وطرق الجستابو التى ما زالت ماثلة فى الاذهان . والتى انتهجتها ، صدمة عنيفة لجزء كبير من الرأى العام حتى فى فرنسا نفسها . وعندما بدأ التصميم

فى الاوساط العليا على معالجة مشكلة الجزائر وبدا أن هناك احتمال اجراء مفاوضات مع الثوار ، استولى الاستعماريون والجيش على السلطة واتوا بعد قيامهم بفتنة مايو عام ١٩٥٨ بديجول الى الحكم مهددين بالحرب الاهلية ، ومعتقدين انهم بهذه الطريقة سيغلقون الباب فى وجه اية محاولة لايجاد حل لها .

وبقى الامل فى الوصول الى حل سياسى لمشكلة الجزائر ، واعادة السلام الى ربوع البلاد

وبدا أن تصريح ديجول فى سبتمبر عام ١٩٥٩ عن مستقبل الجزائر انه يقدم حلا جديدا للمشكلة برمتها . ففى هذا التصريح الذى أعلنه فى ١٦ سبتمبر يحصر مستقبل البلاد فى حرية اختيار السكان المحليين « الفرنسيين والعرب » ووضع امامهم احتمالات ثلاثة : الانفصال الكامل أو الاندماج الكامل مع فرنسا ، أو الحكم الذاتى الجزائرى مع الاتحاد مع فرنسا والحصول على تاييد منها والمسالة الهامة فى هـــذا الاقتراح « الذى أثار شك الفرنسيين المتطرفين بصورة ليست أقل من شك الجزائريين انفسهم » هى الى أى مدى ستكون حرية الاختيار ايجابية وفعالة فى خلال المدة التى حددها ديجول لتحقيق ذلك واقصاها أربع سنوات بعد وقف القتال فى البلاد . ولاول مرة يعترف رئيس الدولة الفرنســـية المسئول بهذه الحقيقة وهى ان مصير الجزائر يجب أن يعتمد على اختيار شعبها بحرية . ورغم ان ديجول قـــدم حلولا ثلاثة وهى الاندماج الكامل مع « فرنسا المتروبوليتان » أو على الحكم الذاتى فى نطاق « الكومنولث الفرنسى » او الاستقلال الكامل مع الانفصال، فانه استنكر هذا الاختيار الاخير رغم أنه كان ضمن اقتراحه ، وادعى أنه مضر بالجزائر . ولكن مجرد ذكر ذلك حتى لو كان من الناحية النظرية كان خطوة كبرى فى سبيل التفاوض مع الثوار . ولذلك اضطرت حكومة الجزائر المؤقتة فى المنفى الى بحث هذه الاقتراحات، والاعتراف ، ولكن بتحفظ . بامكانية الدخول فى مفاوضات لبحث هذه الشروط . وفى الوقت نفســه أثار الاعتراف بالانفصال كحل محتمل مشاعر قوية من الاستياء والغضب بين المستعمرين الفرنسيين

والدوائر العسكرية الفرنسية . فقد شعروا بان الاساس الشرعى برمته لبقائهم فى الجزائر أصبح مهددا .

واخيرا تحدث ديجول ، بعد أيام من القلق وعدم الاستقرار ، الى الجيش ولامة ، عن طريق الاذاعة ليطمئن الى تاكيد سلطته مرةأخرى. ومع ذلك فان هذا الحادث الخطير يبين كيف أن الطريق المؤدى الى حل لازمة الجزائر طويل وشاق . اقترح ديجول فى خطبته التى ألقاها فى سبتمبر مدة محددة اقصاها أربع سنوات يتم خلالها الوصول الى تسوية نهائية . وفى الوقت الراهن . لابد من الاعتراف بان احتمال الوصول الى حل ديمقراطى وانسانى بحق هو الحل الوحيد لمشكلة الجزائر .

الفصل العاشر

انفجار الموقف فى لبنان والعراق (١٩٥٨) :

نشبت الازمة فى صيف عام ١٩٥٨ . فظهرت أولا فى اندلاع الحرب الاهلية فى لبنان . ففى مايو دخلت قوات المعارضة (بعد قتل صحفى حر هو نسيب المتنى) الميدان فى شكل عصابات . فاظهروا عدم قدرتهم على الاستيلاء نهائيا على السلطة . كما اظهرت الحكومة عجزها عن قمعهم وبسرعة وبصورة حاسمة . كان الراى السائد فى الاوساط الدولية يعتقد ان الازمة داخلية محضة . وفى ذلك الوقت حدث انقلاب فى العراق وقلب الموقف هناك رأسا على عقب وحل الاتحاد العراقى الاردنى الذى لم يعش طويلا (*) واسفر الانقلاب العسكرى السريع عن قتل الملك فيصل والاسرة المالكة باسرها فى بغداد فى ١٤ يوليو . ورئيس الوزراء نورى السعيد بعد ايام قليلة . واعلان الجمهورية فى العراق .

وبينما بدت الثورة العراقية فى بادىء الامر خطوة نحو الوحدة العربية الشاملة بدأت أصابع الاستعمار تعمل فى خفاء وقلبته رأسا على عقب تقريبا . وفى الثمانية عشر شهرا التى تلت سقوط الاسرة الهاشمية مرت البلاد خلال فترة عصيبة للغاية من تاريخها السياسى والاجتماعى ، فكانت مليئة بالمؤامرات والثورات والاغتيالات « كان اخطرها ثورة الموصل العسكرية فى مارس عام ١٩٥٩ . واخمدت بسفك الدماء » . وفى صيف عام ١٩٥٨ لم تتردد بريطانيا فى ارسال قوات الباراشوت لحماية آخر دولة عربية ظلت صديقة لها .

ويجب الآن أن نسرع فى غرضنا التاريخى للتطور الذى ما زال يسير قدما الى الامام . محاولين الوصول الى نتائج من كل ماحدث حتى الآن .

لقد تالفت من جديد الوحدة التى ترجع الى بداية الحركة من أجل التحرر العربى والتى رفضها الغرب . ولم يعترف بها لاكبر وقت ممكن

كتب سياسية ـ صدر من هذه المجموعة

رقم	اسم الكتاب
١	أسرار الصهيونية
٢	خليج العقبة
٣	آراء فى السياسة
٤	الهدنة الشائكة
٥	برتوكول حكماء صهيون
٦	فى داخل افريقيا
٧	نزع السلاح
٨	مصر الثائرة
٩	الكتل الدولية فى الامم المتحدة
١٠	الانظمة الانتخابية فى العالم
١١	اسرار الحملة على مصر
١٢	الزعيم الثائر
١٣	مؤامرة السويس
١٤	العدالة الدولية
١٥	المشروعات الاستعمارية فى افريقيا
١٦	اسرائيل والفكرة الصهيونية
١٧	غروب الاستعمار
١٨	التلمود شريعة اسرائيل
١٩	عدو فرنسا رقم ١
٢٠	٢٣ يوليو
٢١	قناة السويس
٢٢	حلف جنوب شرق آسيا
٢٣	عمان وأمارات الخليج العربى
٢٤	التقاليد البرلمانية فى بريطانيا
٢٥	رحلة مع التاريخ

رقم	اسم الكتاب
٢٦	الحكومة العالمية
٢٧	التقاليد البرلمانية فى بلجيكا وهولندا والنرويج
٢٨	الجزائر مشكلة دولية
٢٩	حلف بغداد
٣٠	شعب اسرائيل عندما يحكم
٣١	حق تقرير المصير
٣٢	نحو علم السلام
٣٣	اللاجئون
٣٤	الاشتراكية غدروا بها
٣٥	سورية
٣٦	السياسة الدولية على ضوء القمر الصناعى
٣٧	قصة السويس
٣٨	افريقيا فى طريق الحرية
٣٩	مشكلة العصر الحاضر
٤٠	٦ ايام فى سورية
٤١	حلف الاطلنطى
٤٢	قبرص صراع فى سبيل تقرير المصير
٤٣	ايران الغربية
٤٤	نحو مجتمع اشتراكى ديموقراطى تعاونى
٤٥	تضامن الشعوب الافريقية الاسيوية
٤٦	مشكلات عربية
٤٧	نداء التعايش
٤٨	سورية
٤٩	اليمن
٥٠	قصة الدبلوماسية الامريكية فى آسيا
٥١	دولة كبرى فى الشرق الاوسط
٥٢	الجمهورية العربية المتحدة
٥٣	خطب الرئيس فى الاقليم الشمالى
٥٤	اليمن الحديثة

رقم	اسم الكتاب
٥٥	هـذه هى الجزائر
٥٦	اسرائيل عصابة عدوانية
٥٧	نحو الاشتراكية
٥٨	بترول العرب
٥٩	الملونون
٦٠	سياسة عدم الانحيـاز
٦١	دفاع عن أفريقيا
٦٢	الناصر صلاح الدين
٦٣	لبنان الثـائر
٦٤	الاستعمار البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية
٦٥	ازمة السياسة الامريكية
٦٦	غانا دولة افريقية متحررة
٦٧	الاستجواب
٦٨	حيـاة شعب
٦٩	يوغوسـلافيا
٧٠	العراق الثـائر
٧١	مصر الفتية
٧٢	بنـاء المجتمع الجـديد
٧٣	سـقوط حلف بغـداد
٧٤	الثورة الاجتمـاعية
٧٥	قضـايا عالميـة
٧٦	الصهيونى العـالمى
٧٧	الذرة فى المحيط الدولى
٧٨	الفجر العربى
٧٩	القوميون السوريون
٨٠	امريكا وبترول الشرق الاوسط
٨١	رحلة الى أرض المتـاعب
٨٢	اسرائيل جناية وخيانة
٨٣	اضواء على الســد العـالى
٨٤	الاشتراكية التعاونية
٨٥	السودان حقائق ووثائق
٨٦	الارهاب الصـهيونى

هيئة قناة السويس

لماذا قام مشروع ناصر لتعميق وتوسيع قناة السويس

لم تكن الشركة المؤممة تتوخى فى المشروعات التى كانت تعدها لتحسين القناة غير مصلحتها الخاصة ، فكان المسئولون عن ادارتها يقصرون مشروعاتهم على الفترة الباقية من مدة الامتياز الممنوح لشركتهم دون أن يعملوا حسابا لتطور الملاحة العالمية أو الازدياد المطرد فى عدد السفن التى تعبر القناة أو ضخامة حمولتها .

وقد ذكرت مجلة الايكونومست البريطانية صراحة ان المشروعات التى كانت قد أعدتها الشركة المنحلة لم تكن تكفى باى حال ضغط العبور فى سنة ١٩٦٥ ، أى بعد تسع سنوات من تاميمها ، وقبل انتهاء عقد امتيازها بثلاث سنوات .

ولما كانت حركة الملاحة فى القناة تشتد عاما بعد عام ، كان لزاما على الجمهورية العربية المتحدة أن تحتاط لهذه الزيادة وأن تعمل كل مافى وسعها لمواجهة كل احتمال يترتب عليها أو ينشا عنها ، فاعد مشروع ناصر لتعميق القناة وتوسيعها .

ويجرى العمل حاليا على تنفيذ هذا المشروع الذى سيكون له اثره المحسوس فى تمكين أكبر عدد من السفن من المرور بالقناة فى سرعة ويسر ، لا سيما أنه سيصل بالقناة الى العمق الذى سيسمح لها باستقبال البواخر التى يبلغ غاطسها ٣٧ قدما فى حين أن أضخم البواخر المسموح بمرورها فى الوقت الحاضر لا يتجاوز غاطسها ٣٥ قدما .

تعميم نظام الائتمان الزراعى والتعاوني

فى جميع قرى الاقليم الجنوبى فى مستهل عام ١٩٦١

بدأ بنك التسليف الزراعى والتعاونى اعتبارا من مستهل سنة ١٩٥٧ فى تنفيذ نظام الائتمان الزراعى والتعاونى فى قرى ثلاثة مراكز هى : ميت غمر وشبين الكوم والمنيا . وعندما أبرزت النتائج الاولى للتنفيذ اثرها فى التيسير على الزراع وتوفير مقومات الانتاج لهم اتجه البنك الى تعميم هذا النظام على أساس برنامج تم تنفيذه حتى آخر العام الماضى فى ٨٦ مركزا وينتهى تنفيذه فى المراكز الباقية وقدرها ٣٠ مركزا فى يناير ١٩٦١ .

ويعتبر البنك عصب هذا النظام والجهاز الرئيسى فى تنفيذه .

فقد خصص لجمعيات الائتمان أجهزة للاشراف من بين موظفيه الذين اكتسبوا خبرة فى أعمال الاقراض والتحصيل لتوجيهها ودفعها الى خدمة اعضائها بقوة .

وفر حاجات هذه الجمعيات من السلف العينية والنقدية وغيرهما من مقومات الانتاج الزراعى فى مقار جمعياتهم حتى يحصلوا عليها بسهولة ويسر .

استحدث انواعا من القروض لتطوير وتنويع أوجه نشاط هذه الجمعيات بما يحقق تنمية الانتاج وحمايته من المصادر المستغلة .

وقد حققت جهود البنك فى تنفيذ هذا النظام الاهداف التى وضع من اجلها حيث أصبحت جمعيات مركز اشعاع للخدمات التعاونية ونقطة ارتكاز لاقامة المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى .

وصلت الخدمات الائتمانية الى طبقة صغار الحائزين بسهولة ويسر ويدل على ذلك :

* زيادة قيمة السلف والمساحات المخدومة فى ظل هذا النظام زيادة كبيرة بالمقارنة بنظيرتها قبل تنفيذه .
* تفوق نسبة الزيادة عدد المستفيدين من هذه السلف عنها للمساحة المخدومة مما يدل على انها قروض صغيرة الحجم استفاد منها صغار الحائزين .

هذا ولا يدخر البنك وسعا فى سبيل تدعيم هذا النظام وتوفير مقومات التنفيذ السليم له ايمانا باهميته فى اقامة المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى .

مطـابع
الدار القومية للطبـاعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
ت ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥

كتب ثقافية

تقدم يوم الخميس القادم

٢٠ يوليو سنة ١٩٦١

مولد بلا عودة

وقصص أخرى

بقلم

أحمد عادل

الكتاب ٢٢٠ الثمن ٣ قروش

صدر يوم الاحد ١٦ يوليو (تموز) ١٩٦١

الدار القومية للطباعة والنشر

شركة ذات مسئولية محدودة

١٥٧ ش عبيد ـ روض الفرج

ت ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٠٤٠٥